

فيما نلم به من الخلاف على سيويه، رحمه الله، في السير من نظره، لافي شيء من نقله، لأن تقليد الصادق في نقله واجب، والاعتراض عليه في نظره جائز... (١)».

وهكذا انحصر غالب عمل النحاة في هذا الأمر، ولست أدري ماذا يكون عليه الحال، لو أن النحاة كانوا قد أفلتوا من إسار العلة، وبنوا على الأساس اللغوي الذي أثمره القرن الرابع في آثار ابن جنى وابن فارس؟ لاشك أنه كان ينتظر حينئذ الشيء الكثير!
نقد متقدم:

يبدو من النص الذي ساقه الزجاجي للخليل (٢)، أن شيئاً من النقد قد وُجّه إلى علل النحاة في هذا الوقت المبكر، وواضح من حديث ابن جنى في الخصائص أنه كان هناك من ينكر عليه أمر هذه العلة، ومن ثم يدافع عنها (٣)، وفي القرن الخامس قال ابن سنان الخفاجي (ت ٤٤٦): «فأما طريقة التعليل، فإن النظر إذا سُلِّط على ما يعلّل النحويون به، لم يثبت معه إلا الفذ الفرد، بل ولا يثبت شيء البتة، ولذلك كان المصيب منهم المحصل من يقول: هكذا قال العرب، من غير زيادة على ذلك (٤)». وكان معاصره في الأندلس أبو بكر بن حزم (ت - ٤٥٦) يقول أيضاً عن النحو: «وأما العلل فيه ففاسدة جداً». وقد نقلنا من قبل نقد ابن مضاء في كتابه الرد على النحاة.

هذا وقد يعتذر المنصفون لبقائها بأنها وسيلة دراسية لتثبيت القاعدة، أو كما يقول ابن سنان: «يتدرّب بها المتعلم ويقوى بتأملها المبتدئ (٤)»، فهذا شيء قد

(١) الافصاح ورقة ٢، ٣.

(٢) الايضاح ٦٥، ٦٦.

(٣) ينظر الخصائص ١/٧٢، ١٨٤، ٢٣٧.

(٤) سر الفصاحة ٣٣.